الآراء الـــواردة في الـصـفـحـة تـعـبـر عـن وجـهـات نـظـر كـتـابـهـا ، وقـد لاتـتـفـق بـالـضـرورة مـع وجـهـة نـظـر الجـريـدة

على هامش الصراحة

أحلام سيد ناصر

■ إحسان شمران الياسري

لا يخفى على العارفين، وغير العارفين، إننا نمارس مع بعضنا عادات الحب كما لو انه ليس حباً، ونحزن أحياناً ونحن في أقصى درجات البهجة التي نعبّر عنها بالضحك..

والضحكُ مظهرٌ من مظاهر البهجة، والبهجة شكل السعادة وعنوان الفرح..

والكثير منّا شيّع عزيزاً أو صديقاً، وعاد من مراسيم التشييع يضحك ويمازح بقية المشيّعين، وجلس في المطعم الواقع بين مدن الدفن ومدن الاهل وراح يتذوق الطعام ويُقيّم المقبّلات، ويعترض على (حموضة اللبن).

وكل هذا، ونحن نبحث في ثنايا نفوسنا عن فرح يعوّض ذوي الفقيد ويُسرّي عن انفسهم في محنة غياب عزيزهم..

وبسبب الحب، ومنافع اللعب بمشاعر الاوفياء من هؤلاء الأحبه، حاول (سيد ناصر) استثمار قدرته على الاقناع في الحصول على منافع شخصية تتعلق برغباته بأنواع معينة من الطعام في توقيتات محسوبه!!

ويُشترط لإتمام هذا (البرنامج) أن يتواجد على الطرف الآخر شخص طيب القلب، وفيٍّ لأحبائه الراحلين.

ومن هذا الباب، يدخل سيد ناصر الى قلب صاحبه الطيب والوفيّ للمرحوم والده.. فيوم تكون رغبته في (البامية) للغداء، يأتيه ضُحى"، مُتصنّعا" السرور والبهجة بحلمه ليلة البارحة (ياخويه، البارحه شفت مرحوم الحجي والدك..الوجه مثل الكمر، والهيبة تتطشر من كل مچان..)..

ويفرح الولد لهذه الرؤية المباركة، ويترحّم على والدي سيد ناصر..

ويكمّل صاحبنا حكاية حلمه الجميل..

ياخويه، چان مرحوم الحجي مشتهي (بانيه وتمن)، واكلنه آنه ويّاه بهذا مضيفكم واحنه ميتين من الضحچ!!)..

فيبادر الولد لإعداد الغداء على الشاكلة التي وجدها سيد ناصر بالحلم.

وقد اقترح جاري أن نبعث برسائل الى السادة اصحاب العقد والربط في الدولة، نحدّثهم فيها عن أحلام ندّعي رؤيتها في الحلم، عسى أن يقوم المسؤول بتنفيذ مطالب أحبائه الراحلين..

فنقول لمسؤول الكهرباء في الدولة (ياخويه يا استاد.. البارحه شفنا المرحوم والدك، الوجه مثل الكمر، والنور يشع من كل مچان، ولمّا سألناه منين هذا النور، جاوبنا وكال هذا من النور اللي يوزعه ابني على الشعب..)

او نقول لمسؤول العلاقات الخارجية بالدولة (يا استاد، البارحه شفنا المرحوم والدك، الوجه مثل الكمر، ولمّا سألناه منين هذا النور، جاوبنا: آنه من أسافر خارج العراق، الناس تحترمني كلش هواي وما تضايقني بالمطارات، ويختمون جوازي بساع بساع).

ihsanshamran@yahoo.com

الانتحار حرقاً أو تفخيخاً

عبد الزهرة زكي

كان انتحار بو عزيزي، حرقا، رسالة انطوت على أكثر من بعد..لكنها الرسالة الأكثر بلاغة، حينما كانت شرارة لإسقاط نظام سياسي بعد تفجيرها غلياناً شعبياً احتجاجياً عارماً.

الرسالة تعززت قيمتها بما آلت إليه من نتائج، وإلا ففي مكان آخر وفي ظروف أخرى كان من الممكن أن يمر موت بائع جوال مرورا عابرا، يُنسى معه بو عزيزي وتُنسى تضحيته.

في جانب آخر من فحوى الرسالة هو بعدها الآخر الذي يضعها، يضع عملية انتحار بو عزيزي، في مقارنة مع انتحار مفخخي القاعدة، فيفضح البعد الإجرامي الذي يكون معه النيل من حياة الآخرين هدفا أساسيا لاستهتار مفخخ القاعدة بحياته ومن ثم بحياة الآخرين.

لكن كلا الحالين، حال انتحار بو عزيزي وحال انتحار مفخخي القاعدة يضعان العالم أمام صورة الزهد العربي الدراماتيكي بالحياة واليأس منها..وهذا نتاج لتعسف السلطات وتدميرها لأي معنى سام ورفيع للحياة ولشيوع ثقافة تمجيد الموت واحتقار الحياة، وهي ثقافة تجد من يروجها فيشوه مفاهيم الناس كما يشوه بها مفاهيم الدين والثقافة الإجتماعية.

وليس أدل على شيوع هذه الثقافة من جانب، وأدل على ظلم السلطات واستبدادها وطغيانها وما ينجم عنه من ضياع فرص العيش الحر الكريم من جانب ثان، ليس ثمة ما هو أدل على هذين الحالين من هذا التكرار الغريب المستمر لتقليد ظاهرة بو عزيزي في أكثر من مكان عربي.

ظروف انتحار بو عزيزي هي ليست ظروف انتحار مقلديه..بو عزيزي نجح في أخذ زمام المبادرة مما أوقع التالين في مأزق التقليد.

لكن ومهما تفشل محاولات التقليد الانتحاري، حرقا، في تأليب الرأي العام للثأر لها وإعادة إنتاج التجربة التونسية..فإنها تضع المجتمع والسلطات أمام مسؤولية التفكير بطرق أكثر جدية بالحياة التي باتت لا تطاق في أوضاع مزرية ومهينة وتفتقر إلى الحد الأدنى من اشتراطات العيش الإنساني الكريم المتاح في مجتمعات أخرى والذي بات يعرفه العربي في عالم اتصالي مفتوح وينظر إليه بعين تقارن وبإرادة عاجزة وبذات كسيرة، كما عبر عن ذلك أمين عام الجامعة العربية في كلمته في القمة الاقتصادية التنموية الاجتماعية الأخيرة.

الانتحار هو المنفذ الاحتجاجي الوحيد في بيئة سياسية واجتماعية لم تعد توفر منافذ للاحتجاج غير هذا الأسلوب من الاحتجاج السلبي..هذه مشكلات مضخمة لغياب الديمقراطية والحريات الذي أسهم بصنع مفخخي القاعدة ومن ثم صناعة البوعزيزيين.

في الحرب مع إيران كان اعتداء الجنود على أجسادهم، بتر أصابعهم أو أقدامهم أو أكفهم هو المنفذ الممكن المتاح للتخلص من الحرب ومن الموت فيها حيا أو ميتا..

لكن كان ذلك مما سمي في الجيش بحالات إيذاء النفس بعد تنبه السلطات حينه على تكرارها وأخذها طابع الظاهرة، فكان الجندي يعاقب عليها بوصفه متخاذلا وجبانا.

الحريات وحدها توفر إمكانية التعبير الحر والشجاع عن الجوع وعن الخوف وعن المعاناة وعن الاحتجاج على كل هذا بصوت مسموع يسمح للسلطات العادلة وللمجتمع العادل أن يعدل في سياساته ويغير في خططه بما يؤمن للمحتاجين كفايتهم مما يحتاجون إليه..بينما الاستبداد والخوف والصمت على المظالم هي ما سمحت لهذه العاهات بالتضخم السري وباعتمالها في الجسد الاجتماعي لتنخره وتنفجر في أية لحظة يكون معها الانفجار خيارا لا خيار سواه.

لم تكن أمام المنتحرين البوعزيزيين حتما سوى هذا المنفذ الذي فتحه لهم الرائد بوعزيزي..لكن مجتمعا وأنظمة تحتقر الحياة إلى هذا الحد لا يمكن لها أن تنتج حياة محترمة ويعتد بها.

وبهذا تكون المجتمعات العربية وأنظمتها السياسية أمام مسؤولية التفكير الجدي بتجربة تونس والخروج منها بحلول، حلول لا تفكر بدحر التجربة وطمرها، فحتى وإن حدث هذا الطمر فإن فرص تكرار التجربة ستظل متوفرة لتكون عودتها بإطار آخر أكثر دموية ودراماتيكية هو النتيجة التاريخية التي لا محيد عنها..المهم هو التفكير ايجابيا بالمعطيات وتوسيع افق الحريات الديمقراطية والتخفف من القبض على السلطة وعلى ثروات المجتمع وفرصه بعيش حر وكريم، ليعود الإنسان العربي إلى ذاته المعافاة والى حياة يعتز بها ويفكر بالدفاع عنها بدل التفكير باحتقارها إلى هذا الحد الذي يشكل عارا للنظام السياسي والاجتماعي العربي الراهن.

أثر النبي.. الشاعر روائياً

فريدة النقاش

> شيخ الطريقة الذي أجلسني بجواره في إحدى حلقات الذكر في مسجد الحسين قال لي: (اعرف الفارق بين العلامة والأثر).. ثم يضيف الشيخ (إن الفارق مثل ما بين الحياة والآخرة فاتبع العلامة، واترك الأثر.. كلنا نبي نفسه، فالبس رداء تقشفك، واترك الناس تتبع أثرك).

وهناك صندوق يضع فيه (أدهم صبري) الراوي في رواية أثر النبي (لمحمد أبوزيد) كتبا وصورا قديمة وقصاصات صحف.. ويتساءل هل هذا الصندوق هو أثري الذي سأتركه أم علامات مرت؟ فهل يبحث صاحبنا عن خلود ما هو التواق إلى السفر، الحالم بالطيران (فارداً ذراعي كلاعب سيرك يخاف من السقوط أرفع يدي لأعلى لكنني لا أطير يا زينب).

(زينب) هي الحاضر الغائب لا تطل علينا أبدا في الرواية لكنها ملاذ صاحبنا الطالب الذي ينتقل من مكان بائس لآخر أشد بؤسا يهرب (من عالم ضيق، فأجد العالم يضيق أكثر) عالم يقف على أظفاره في انتظار أن تدق الشرطة الباب في أي لحظة (احتمال أن يرجعوا مرة أخرى، يدقوا الباب فيقتلوني حين يجدونني وحيدا).. فنحن أمام مدينة بلا قلب وبوسعنا طوال قراءة النص أن نستعيد الديوان الأول بهذا الاسم للشاعر (أحمد عبد المعطي حجازي) كما نستدعي قصيدته (لا أحد) ففي هذه الرواية الشعرية (الغرباء يموتون هنا دون أن يحس بهم أحد)، ومعظم شخصيات الرواية هاجرت من الريف إلى هذه المدينة الموحشة التي لم يجدوا فيها سوى القهر والقمع على كل المستويات وطنية حيث ينتهي القص بالغزو الأمريكي للعراق، وشعور الجميع بقلة الحيلة إزاءه، واجتماعية حيث الرزق الشحيح والمساكن الخانقة والأحلام المجهضة، وروحية حيث التمزق بين حلم الشخصية الراوية بالطيران وضغوط الإخوان المسلمين الذين يحرمون القصص وكل أشكال الفن، ويحلق الموت بين هذه العوالم كلها كأنه طائر الرخ، فمن موت حقيقي (لعادل هياكل) زميل السكن الذي وصفوه هذا الوصف بسبب مرض السل الذي أكله إلى الكتب (عن عذاب القبر) وعلامات الساعة الصغرى التي يعطيها له الرجل المكلف بتجنيده لحركة الإخوان.. ويجد الراوي أنه بذلك يخرج من نفسه الحقيقية إلى نفس أخرى (أتخلى عن وجهي وأرتدي وجها آخر)، بينما تبدأ الرواية (بالدم) في فصلها الأول حيث ينزف عادل وتنتهي بتصريح بالدفن أي أننا بصدد بنية دائرية تبدأ بالموت وتنتهي من حيث بدأت.

ولمثل هذه البنية دلالات كثيرة، فهي اغتراب حيث يدور الراوي حول نفسه، وهي انغلاق دائرة القمع واللوعة التي تعيشها الشخصيات في بحثها المضني عن ثغرة، وذلك كله على خلفية من الكدح موت الأم وتسلط الأب وزوجته.

تنفتح ثغرة في الدائرة المغلقة فقط في حالة التصالح مع العالم التي يجريها الراوي أثناء غزو أمريكا للعراق واندلاع المظاهرات الاحتجاجية (كنا نوصل الطعام يوميا إلى الطلبة المحاصرين وأشعر بأنني قد بدأت أتصالح مع الناس.. مع الشوارع) إنه التصالح الذي يتم فحسب في حالة الفعل الإيجابي من أجل هدف كبير يتجاوز الأشخاص.

يلجأ الكاتب إلى السخرية حين يتعامل الراوي بمنتهى الجدية مع (حجازي) رفيقه في السكن الذي تخيل أنه ممثل وقام بدور (ضجيج في المقهى)، ولكننا أيضا سوف نبتسم ساخرين حين يخبرنا أنه كان يقرأ في المترو والباص والترام ونحن نتساءل كيف كان يفعل ذلك حقا؟

نحن بصدد نص أدبي جميل مفعم بالمشاعر كتبه شاعر فيه اكتناز وكثافة في اللغة الآسرة بادئاً بالمعرفة كألم في مفتتح الكتاب يقول في مناجاته (لزينب) التي هي قارب نجاته (هنا خنتك يا زينب، أنا الذي أعرف كل شيء، وأنت التي لا تعرفين، أتذكر فأتعذب) ويتشبع النص بمقتطفات من أشعار الصوفية إضافة للتاريخ المكثف للصمود أمام العدوان الذي يحكيه محمود المليجي في فيلم (الأرض) كمقدمة لفصل الحرب.

يستطيع (محمد أبوزيد) أن يطمئن بعد روايته الشعرية تلك إلى أنه ترك أثراً حتى وهو (ينتقل من شارع لآخر كتابع يبحث عن نبيه) فهو نبي نفسه كما قال له الشيخ وحتى بعد أن أصبح حلم الطيران جريا في الطرقات اتقاء للألم وبحثاً عن معنى.

صراع في تونس (الانتفاضة) حول المستقبل

الإنترنت يقود انتفاضة الشعب.. وكوادر اتحاد الشغل التونسي والأحزاب تشارك فيها

الليبرالية الجديدة ليست أزمة الاقتصاد التونسي.. أربع عائلات تهيمن على الاقتصاد وتشيع الفساد

حسين عبد الرازق

لم تكن انتفاضة الشعب التونسي والتي انطلقت إثر انتحار الشاب (محمد بوعزيزي) بحرق نفسه في مدينته (سيدي بوزيد) التي تبعد ٢٧٠ كيلو متراً غرب العاصمة تونس، وهو خريج جامعي أجبرته البطالة على العمل بائعا متجولا للخضراوات والفاكهة، ولجأ للانتحار احتجاجا على مطاردة شرطة البلدية له وإهدار كرامته عندما صفعته شرطية على وجهه في مبنى المحافظة، حيث كان في طريقه لمقابلة محافظ المدينة أملا في إنصافه.. لم تكن أول انتفاضة للشعب التونسي.

فقد شارك التونسيون في الإضراب العام الذي دعا إليه (الاتحاد العام التونسي للشغل) في ٢٦ يناير / كانون الثاني ١٩٧٨ في عهد الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة، وفي (انتفاضة الخبز) في ٣ يناير ١٩٨٤، وفي الحركة الاحتجاجية في منطقة الحوض المنجمي في محافظة قفصة (جنوب سيدي بوزيد) عام ٢٠٠٨.

ولم يكن انتحار (محمد بوعزيزي) حدثا نادرا في تونس، فكما يقول الكاتب التونسي الصديق رشيد خشانة (.. تكاثرت ظاهرة الانتحار بوصفها علامة على القنوط ونتيجة انسداد جميع السبل أمام قطاعات واسعة من الشباب، ويقدر عدد المنتحرين في تونس بألف شخص سنويا، وهي نسبة مرتفعة في بلد لا يتجاوز سكانه ١٠ ملايين فرد، ما يعني أن هناك مواطنا واحدا يلجأ للانتحار من كل ألف مواطن، على الرغم من الموانع الدينية والاستهجان الاجتماعي والأخلاقي لهذه (الحلول)، ومن الأرقام ذات الدلالة في هذا المجال ما صرح به الدكتور أمان الله الساعدي الأستاذ في كلية الطب رئيس قسم الإنعاش الطبي بـ (مركز الإصابات والحروق البليغة) من أن ١٢٪ من الوافدين على المركز هي حالات تخص من حاولوا الانتحار كما أفاد أيضا أن المركز سجل ٢٨٠ حالة انتحار في ٢٠١٠ منذ بداية العام حتى تشرين الأول/أكتوبر فقط، أي بمعدل ٢٨ حالة شهريا، أو حالة انتحار كل يوم تقريبا).

وفي نفس وقت انتحار بوعزيزي انتحر أيضا (حسن الفالحي) الذي تسلق عمودا كهربائيا احتجاجا على الفقر والحاجة والبطالة، ومات متفحما بعد أن صعقه التيار الكهربائي.

ولكن ما حدث في تونس منذ ١٨ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٠ (اليوم التالي لانتحار بوعزيزي) ١٤ يناير ٢٠١١ تاريخ هروب زين العابدين بن علي وسقوطه، يختلف عن كل ما سبق فما حدث خلال ٢٨ يوما في تونس كان انتفاضة شعبية (اجتماعية - سياسية) تلقائية، بدأت من (سيدي بوزيد) لتنتشر بسرعة في المحافظات المجاورة ثم تمتد إلى (أرخبيل قرنقة شرقا، وبن قردان جنوبا، وجندربه شمالا) أي إلى كل مدن وقرى تونس.

ولعب مستخدمو الإنترنت دور (القيادة) في هذه الانتفاضة إذا جاز التعبير، فالرسائل المتناقلة بواسطة الإنترنت والصور المتبادلة عن طريق (فيس بوك) هي التي حرضت على التظاهر، رغم أن زين العابدين بن علي أطلق منذ مدة حملة (قصف المواقع الإلكترونية) واعتقل عديدا من المدونين الشبان وأقفل البريد الإلكتروني لآخرين (من أجل قطع الشباب التونسي عن العالم الخارجي، وخاصة عن حركة التدوين الجريئة في العالم العربي، وتحديدا في مصر، وكان الحكم يخشى مع انتعاش الحركة النقابية في بعض الجامعات أن تستعيد الحركة الطلابية الزخم الذي عرفته أيام العهد البورقيبي وتتحول إلي قوة رفض يصعب ترويضها، لكن لم يتوقع الحكم أن يخرج الشبان بتلك القوة والكثافة إلى الشوارع خلال الانتفاضة، إذ كانوا العمود الفقري للمظاهرات، وإن لوحظ أيضا أنها لم تقتصر عليهم، وإنما شارك فيها أيضا المدرسون والموظفون والنقابيون وكوادر بعض الأحزاب السياسية)، باختصار ما حدث كان (ثورة معلوماتية جديدة فرضها الشباب على السلطات فرضا، فاستطاعت الالتفاف على جميع الحواجز وتدمير قواطع الرقابة التي كانت تصادر صحيفة وتحجب مدونة وتقطع خط هاتف جوال.

اتحاد الشغل

كذلك فقد شاركت قواعد (الاتحاد العام التونسي للشغل) منذ البداية في المظاهرات، ولكن قيادة الاتحاد ظلت على (الحياد) منذ بدء المواجهات، واضطرت تحت ضغط قواعدها لتوجيه الدعوة للإضراب العام والتظاهر يوم الجمعة في قلب العاصمة، وهي أول تظاهرة يدعو لها الاتحاد منذ ٣٢ عاما.

وكشفت الانتفاضة عن ضعف الأحزاب السياسية وهشاشتها وعزلتها عن الشارع، وإن كانت كوادرها الوسطى في مختلف المدن والقرى كانت حاضرة بقوة في الانتفاضة، (باستعراض أسماء اللجنة التي قادت التحركات في سيدي بوزيد خلال الانتفاضة على إثر انتحار محمد بوعزيزي ندرك ثقل حضورها السياسي، ناهيك عن أن الناطق الرسمي باسم الانتفاضة في سيدي بوزيد والذي اعتقلته السلطات ثم اضطرت لإطلاقه هو عضو قيادي في الحزب الديمقراطي التقدمي)، وشاركت كوادر وقيادات (حزب العمال الشيوعي التونسي) المحظور في الانتفاضة منذ البداية وظهر تمايز بين الأحزاب السياسية خلال الانتفاضة، بين من انتظر (تميز الخط الأبيض من الأسود) ومن بادر إلى اتخاذ خطوات عاجلة لحمل الحكومة على الاستجابة لمطالب المنتفضين على غرار المؤتمر الصحفي الذي عقدته قيادة الحزب الديمقراطي التقدمي في اليوم الثامن من اندلاع الانتفاضة للمطالبة بإقالة وزير الداخلية والإعلام وإفساح المجال أمام مسؤولي الانتفاضة لمخاطبة وسائل الإعلام الدولية، وارتقت أحزاب المعارضة إلى مرحلة أعلى لما توافقت علي التنسيق بين تياراتها المتنافسة واتخذت موقفا مشتركا في ٩ يناير ٢٠١١ طالب الحكم بوقف إطلاق النار على المتظاهرين وسحب قوات الجيش والشرطة إلى الثكنات.

كسر المحظور

غير أن الأحزاب السياسية (لم تلتقط شعارا مركزيا في المظاهرات التي جابت المدن، والذي تردد بقوة حتى في التجمعات النقابية في قلب العاصمة، وهو مكافحة الفساد ومحاسبة العائلات المتهمة بسرقة ثروة البلاد (وعلى رأسها عائلات بن علي والطرابلسي (زوجة بن علي) والماطري (صهر الرئيس) والمبروك زوج (سيرين بن علي)، ربما تهيبت المعارضة من طرح هذا الملف على الساحة العامة، لكن ذلك لم يمنع المنتفضين من كسر المحظورات ووضع الإصبع على قضية ظلت شغلا شاغلا لفئات مختلفة، بما فيها فئة من رجال الأعمال، من دون القدرة على ملامسة هذه (الصفيحة الحارقة)، وبينما كان رد فعل الشارع على خطاب بن علي يوم الخميس ١٣ يناير هو رفع شعار (تونس حرة حرة.. بن علي بره بره) مطالبة بإسقاط زين العابدين بن علي ونظام حكمه، قال أحمد نجيب الشابي (الحزب الديمقراطي التقدمي) إن (الخطاب ينطوي على أهمية سياسية وينسجم مع آمال المجتمع المدني والمعارضة)!!

ولا يعني ذلك أن الأحزاب التونسية المعارضة يمكن وضعها في سلة واحدة، فالقراءة المدققة لمواقفها وأوضاعها وتاريخها يقسمها إلى ثلاثة اتجاهات:

أحزاب معارضة معترف بها.. وتضم أساسا (حركة التجديد) التي انبثقت في أبريل/ نيسان ١٩٩٣ عن الحزب الشيوعي التونسي الذي تأسس في أوائل العشرينيات من القرن الماضي، وأمينه العام الحالي هو (أحمد إبراهيم) الذي انتخب عام ٢٠٠٧ بعد تخلي الزعيم التاريخي للحزب (محمد حرمل) عن الرئاسة، و(الحزب الديمقراطي التقدمي) الذي أسسه أحمد نجيب الشابي تحت اسم التجمع الاشتراكي التقدمي عام ١٩٨٩ وتتولى أمانته العامة السيدة (مي الجريبي) و(التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحرية) وأمينه العام (مصطفى بن جعفر).. ورغم كونها أحزابا معترفا بها لكن علاقاتها بالسلطة يشوبها التوتر والصدام في بعض الأحيان.

أحزاب معارضة معترف بها وقريبة من السلطة.. مثل (الحزب التحرري الليبرالي) ويرأسه (منذر ثابت)، وحزب (الاتحاد الديمقراطي القومي) بزعامة (أحمد الاينوبلي).

أحزاب غير معترف بها قانونا وتعمل سرا، وكثير من قادتها في الخارج.. مثل (حزب العمال الشيوعي التونسي) بزعامة (حمة الهمامي)، و(حركة النهضة الإسلامية) بزعامة (راشد الغنوشي)، و(حزب المؤتمر من أجل الجمهورية) بزعامة (منصف المرزوقي).

وتتفق هذه الأحزاب جميعها على اختلاف مواقفها على ضرورة التعامل مع أسباب الانتفاضة والتي يمكن تلخيصها في السياسات الاقتصادية والبطالة والفساد وسياسة التعليم ونمو الطبقة الوسطى والاصطدام بالقمع السياسي وغياب الديمقراطية.

إهمال الصناعة

ورغم أن المؤسسات الاقتصادية الدولية كصندوق النقد والبنك الدوليين تعتبر تجربة التنمية الاقتصادية في تونس (مثالا يحتذى)، ويختار (المنتدى الاقتصادي العالمي حول أفريقيا) الذي انعقد من ١٣ إلى ١٥ يونيه/ حزيران الاقتصادي التونسي باعتباره الأعلى قدرة تنافسية في القارة متقدما بذلك على جنوب أفريقيا، ووضعه في المرتبة ٢٩ بين اقتصادات العالم، والرابع عربيا، ومتقدما على بعض الاقتصادات الأوروبية كاليونان وإيطاليا والبرتغال.. إلا أن الواقع يؤكد تأزم الاقتصاد التونسي وفقدانه التوازن.

لقد مر الاقتصاد التونسي بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى بعد الاستقلال مباشرة عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦١ وتم التركيز فيها علي (تحرير الاقتصاد التونسي من مخلفات الاستعمار الفرنسي الذي ركز على الزراعة والاستخراج المنجمي مع إهمال تام للصناعة) وفي هذه الفترة غادر تونس أغلب الموظفين الفرنسيين وعددهم حوالي ١٢ ألف موظف، وسيطرت الدولة على القطاعات الأساسية وأسست الشركة الوطنية للسكك الحديدية (١٩٥٦) وأممت القطاع المصرفي وشركات الكهرباء والغاز والماء، ثم أممت شركات النقل وشاركت بـ ٥٠٪ في رأس مال شركة الطيران (تونس إير)، وأسست الشركة التونسية للملاحة، وأصبح الدينار التونسي بموجب القانون الصادر بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٥٨ العملة الرسمية للدولة.

المرحلة الثانية في الفترة من ١٩٦١ إلي ١٩٦٩ والتي يمكن تسميتها بمرحلة (التحول الاشتراكي) أو (التحول الاجتماعي)، في هذه الفترة مارس (الاتحاد العام التونسي للشغل) بقيادة أمينه العام (أحمد بن صالح) نفوذا كبيرا على السلطات لتأخذ تونس منحي اشتراكيا بالمفهوم السائد في العالم العربي في ظل جمال عبدالناصر وقرارات يوليو/ تموز ١٩٦١ بمصر فعززت الدولة سيطرتها على مختلف قطاعات الاقتصاد ، وتم إنشاء وزارة التخطيط واعتماد خطة تنمية لمدة عشر سنوات (١٩٦٢ - ١٩٧١) تقوم علي التقرير الصادر عن مؤتمر الاتحاد العام التونسي للشغل عام ١٩٥٦ والذي يدعو (لتونسة الاقتصاد ورفع مستوى المعيشة وتقليل الاعتماد على رؤوس الأموال الأجنبية وخلق سوق اقتصادية اجتماعية وتقليل الفوارق بين الطبقات، وتم تأميم المزارع المملوكة للأجانب (أساسا للفرنسيين والإيطاليين) في مايو ١٩٦٤ وتحويل ملكيتها للدولة، وبلغت نسبة المزارع الجماعية في تونس (التعاضديات) عام ١٩٦٩ حوالي ٩٠٪ من جملة الأراضي.

المرحلة الثالثة، مرحلة الرأسمالية المقيدة وبدأت رسمياً عام ١٩٦٩ بإنهاء (التجربة الاشتراكية) بإقالة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة لمهندس هذه المرحلة (أحمد بن صالح) من جميع مناصبه استجابة لضغوط البنك الدولي، والاتجاه لاقتصاد السوق والملكية الفردية (بما فيها الزراعة) وبالتالي إلغاء المزارع الجماعية عام ١٩٧٠، وقاد هذه المرحلة (الهادي نويرة) محافظ البنك المركزي الذي عين وزيرا للاقتصاد ثم رئيسا للوزراء، واتخذت حكومته خطوات عملية لتحجيم تدخل الدولة في القطاع الصناعي وتشجيع القطاع الخاص، وواجهت تونس في الفترة من ١٩٨٢ وحتى ١٩٨٦ أزمة اقتصادية كبيرة نتيجة هذه السياسات.

المرحلة الرابعة، مرحلة الليبرالية الجديدة والتي بدأت مع تولي زين العابدين بن علي رئاسة الجمهورية وإقدامه على (تحرير الاقتصاد) طبقا لروشتة صندوق النقد والبنك الدوليين، وتبدأ من عام ١٩٨٧ حتى الآن، ورغم تحقيق الاقتصاد التونسي تقدما لسنوات طويلة إلا أنه بدأ يواجه تراجعا وتأزما في السنوات الأخيرة، ولم تصدق نبوءة - أو ادعاء - صندوق النقد الدولي بقدرة تونس على (تجاوز تداعيات الأزمة المالية والاقتصادية بنجاح.. فالآفاق الاقتصادية للاقتصاد التونسي تبعث على التفاؤل)، ويعود ذلك إلى خلل في بنية الاقتصاد التونسي.

فالاقتصاد التونسي يعتمد بصورة رئيسية على الأسواق الأوروبية التي تستأثر بنحو ٨٠٪ من صادرات تونس، مما جعل أي ركود في الطلب الأوروبي ينعكس سلبا بصفة آلية على الاقتصاد التونسي، وأدت الأزمة الاقتصادية العالمية التي عصفت بالدول الأوروبية عام ٢٠٠٩ إلى انكماش الاستثمار في تونس وتراجع الإقبال السياحي الذي يشكل مصدر الدخل الثالث بعد الفوسفات والمكونات الكهربائية والميكانيكية، وانخفاض استهلاك الملبوسات والسيارات، وأفادت إحصاءات رسمية أن الاستثمارات المستحدثة في القطاع الصناعي تراجعت بنسبة ٢٠٪ خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ٢٠١٠ مقارنة بالفترة نفسها من عام ٢٠٠٩، وتراجعت الاستثمارات الأجنبية في تونس بصفة خاصة بين الفترتين بأكثر من ٦١٪.

تشوّه التنمية

وانعكس هذا التباطؤ في النمو - مع عوامل أخرى - في ارتفاع نسب البطالة، خاصة بين خريجي الجامعات، وتقول الإحصاءات الرسمية إن نسبة العاطلين ١٤٪ من قوة عمل تقدر بـ ٣,٣ مليون نسمة، إلا أن الخبراء الاقتصاديين يؤكدون أن هذه النسبة تتجاوز ٢٠٪ في المحافظات الداخلية وتشمل ٣٠٪ من الشبان في الفئة العمرية ما بين ١٥ و٢٩ سنة، وتشير إحدى الدراسات إلى ارتفاع البطالة بين خريجي الجامعات من ٢٠٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٥٥٪ عام ٢٠٠٩ مما دفعهم لتشكيل (اتحاد الخريجين العاطلين)، ويعمل عديد من خريجي الجامعات في قطاع الاقتصاد الموازي مثل بيع الخضراوات على العربات وغسيل السيارات الخاصة وورش البناء (مما أفرز متعلمين يقبعون في أسفل السلم الاجتماعي، ولا يتمتعون حتى بالحقوق التي يتمتع بها الباعة الدائمون أو البناءون العاديون).

وفي مدينة (سيدي بوزيد) التي انطلقت منها شرارة الانتفاضة، فهناك ٢٥٪ من الخريجين الذكور و٤٤٪ من الإناث يعانون البطالة.

العامل الثالث الذي ساهم بقوة في ثورة الشعب التونسي هو الفساد، وأباطرة الفساد تنتمي لأربع عائلات: عائلة بن علي وأبنائه وأصهاره، وعائلة الطرابلسي (زوجة بن علي ليلى الطرابلسي)، وعائلة الماطري صهر بن علي وزوجته ليلي، وعائلة المبروك نسبة إلى مروان المبروك زوج سيرين بن علي، وبينما تركز (عصبة آل بن علي) على منطقة الوسط الساحلية، تركز (مافيا آل الطرابلسي) حول تونس الكبرى، وتقول وثائق (موقع ويكيليكس) على لسان دبلوماسيين أمريكيين إن (نصف مجتمع المال والأعمال في تونس يرتبط بأسرة بن علي وزوجته ليلى عبر علاقات المصاهرة).

و(عصبة بن علي) تشمل زين العابدين بن علي وأبناءه وأصهاره من الزواج الأول، و٧ أشقاء وشقيقات متورطين في العديد من قضايا الفساد من بينهم (المرحوم) المنصف - تاجر المخدرات المعروف - الذي حكم عليه في فرنسا غيابيا بعشر سنوات، ولديه أيضا ٣ بنات من زوجته الأولى (نعيمة الكافي).. غونه ودرصاف وسيرين متزوجات من سليم زروق وسليم شيبوب ومروان المبروك وكلهم من رجال الأعمال البارزين والمؤثرين والفاسدين.

أما آل الطرابلسي، فإضافة إلى ليلى نفسها يسيطر شقيقها بلحسن الطرابلسي على (مجموعة قرطاج) الاقتصادية والتي تهيمن على قطاع السياحة والنقل الجدي والخدمات المالية والتأمين وتجارة السيارات وعديد من الفنادق وإحدى محطتي الراديو الخاصتين في تونس وتوكيل شركة فورد ومؤسسة استثمار عقاري.

وبلحسن هو واحد من إخوة وأخوات عشرة معروفين لليلى، كل واحد منهم له أبناؤه، ومن بين أفراد هذه العائلة الواسعة يعتبر المنصف شقيقها وعماد ابن أخيها بشكل خاص من أهم المتحكمين في الاقتصاد والأعمال في تونس.

وآل الماطري وتحديداً (صخر الماطري) يترأس (مجموعة برنسيس الماطري القابضة) وهي تجمع عدداً من الشركات في مجالات الخدمة المصرفية - بما فيها المصارف الإسلامية - وتجارة السيارات والنشر والاتصالات.

الأسرة الرابعة هي أسرة المبروك، نسبة إلى رجل الأعمال الثروي (مروان المبروك) وتشمل استثماراته مجموعة مصارف وشركات اتصالات إضافة إلى سلسلة متاجر ضخمة مثل (سوبر ماركت جيان) والذي أحرق خلال أعمال العنف التي تخللت انتفاضة ١٤ يناير.

الشفافية معدومة

فلم يكن مصادفة تراجع ترتيب تونس في مؤشر منظمة الشفافية العالمية من ٤٣، عام ٢٠٠٥ إلى ٦١، عام ٢٠٠٧.

لقد تكاتفت هذه العوامل.. الاقتصاد والبطالة والفساد، مع سياسة التعليم ونمو الطبقة الوسطى، مع القمع والاستبداد وانتهاك الحريات العامة وحقوق الإنسان، في انطلاق انتفاضة الشعب التونسي وإزاحة زين العابدين بن علي من السلطة من ١٤ يناير ٢٠١١، لتبدأ تونس أولى الخطوات نحو نظام جديد، يتشكل في الوقت الحاضر، ورغم أن الكثير قد تحقق في الأيام الماضية كالإفراج عن المعتقلين والاعتراف بالأحزاب المحجوبة عن الشرعية والفصل بين الدولة والحزب الحاكم الذي يطالب الشعب التونسي بحله، والإعلان عن اتجاه الحكومة لإلغاء القيود على الصحافة والإعلام وقانون مكافحة الإرهاب سيئ السمعة وقانون الانتخابات.. فمستقبل تونس مازال محلاً للجدل والصراع بين الانتفاضة الشعبية واتحاد الشغل التونسي والأحزاب والمجتمع المدني والحكومة المؤقتة والجيش.